**نظرية الأدب: تعريفها ووظيفتها**

يتصدى الدارس الأدبي في بداية عمله إلى تصنيف المادة الأدبية من غيرها، ويتم هذا الأمر بشكل آلي تقريبا، فهناك أعمال أدبية تفصح عن نفسها مثل الرواية والمسرحية والقصيدة الخ,,، إذ أصبحت لها حدود وتعريفات متفق عليها.

لكن، إذا حاول الدارس أن يسأل: ما الذي يميز الأدب عن غيره؟ وما الذي يجعل من العمل الأدبي عملا أدبيا؟ فإنه سيواجه صعوبات كبيرة، لأن الإجابة تتباين من ناقد لآخر ومن مرحلة لأخرى، فهي تعني البحث عن الخصائص الخاصة للأدب ومصدرها ومهمتها.

فهل الذي يميز الأدب هو اللفظ أم المعنى؟ الفكرة أم الأسلوب؟ أم إن العمل الأدبي محاكاة فنية لفظية؟ وما مفهوم المحاكاة؟ وماذا تحاكي؟ هل تحاكي الظواهر الحسية؟ أم الانطباعات الذهنية؟ أم كليهما؟ وهي أسئلة كما يظهر تتناول الأسئلة عن طبيعة الأدب.

وهناك من يتساءل عن نشأة الأدب: هل تتحكم فيها قوى خارجية عن الإرادة الإنسانية مثل الوحي والإلهام (الخواطر الإيمانية في نظرية الأدب الإسلامي، وربة الشعر عند اليونان، وشيطان الشعر عند بعض منظري الشعرية العرب)؟ أم تتحكم فيه قوى ترتبط بالإنسان مثل غريزة المحاكاة وغريزة حب النغم والإيقاع، أم الانفعال والنشاط العام للخيال؟ أم اللاشعور الفردي ومخزوناته من الذكريات؟ أم اللاشعور الجمعي؟ أم هو صدى للذكريات والأساطير القديمة؟

وهناك من يقول إن الأدب نتاج لعملية إبداع حرة، وآخرون يرونه نتاجا لفعالية اجتماعية. ومن ثم، هل الأدب لعب أم عمل؟ صنعة أم تخييل؟ محاكاة أم إبداع؟

وهناك من يتساءل عن وظيفته: هل هي بناء الإنسان السوي المتوازن المنسجم مع المخلوقات والكون والحياة؟ أم هي إفساد الفطرة والأخلاق؟ أم تطهير العواطف؟ أم إثارة العواطف وتمكين المتلقين من التعبير عن بعض الانفعالات المريضة؟ أم هو فرار من الواقع إلى عالم آخر هو عالم القيم والمثل عند البعض وعالم الخيال والعدالة الشعرية عند آخرين؟ أم إنه دعوة إلى التمسك بالواقع من أجل تجاوزه إلى عالم الخير والصلاح كما تدعو نظرية الأدب الإسلامي أو عالم أفضل من منظور الجدلية الفلسفية؟

ولأن مشارب نظرية الأدب متعددة، اخترنا أربعة مؤلفين للتعرف على أبعاد الأدب من خلال عناصر النظرية:

1-سهير القلماوي: "إن الناقد لابد من أن يدرس أحد أمرين: إما نصا خاصا بعينه، وإما الأدب عامة كما تتجلى حقيقته في صوره جميعا أو في مجموع النصوص عند مختلف الأمم. فإذا وصف ناقد النص بأن حققه ودرس ما حوله من عوامل البيئة والشخصية وعوامل الإيحاء، أي حقق الصلة بينه وبين منتجه وبينه وبين ظروف الحياة من حوله كان كل هذا تاريخ أدب. فإذا حكم على النص حكما، أي إذا وصف انفعاله به فطبق بعض الموازين عليه، أو جال في فيافي الحياة والفن من خلال هذا النص..فكل هذا حكم ولعله تعليل للانفعال ليس إلا..أما إذا وصف الناقد الأدب عامة مبينا كنهه وحقيقته وصفاته وآثاره، خرج وصفه هذا إلى ما نسميه بنظريات الفن الأدبي"..كتاب فن الأدب..المحاكاة ص 19/20

2-علي صبحي: تحدد نظرية الأدب طبيعته بكونها "التجربة الشعورية التي تنبع من الوجدان والخواطر المفعمة بالقيم الإسلامية في بناء غني يعتمد على وسائل التأثر والإقناع: من الألفاظ الفصيحة والأسلوب البليغ والنظم الدقيق والتصوير المحكم بالخيال والعقل معا، والاتساق في الإيقاع المتدفق بأشكاله المتعددة سواء كان وزنا وإيقاعا في الشعر، أو نموا وتطورا في الأحداث كالقصة والأقصوصة، أو قِصَرًا في العبارات والجمل كأنواع المقالة الأدبية.." الأدب الإسلامي، المفهوم والقضية ص 11

3-شكري عزيز الماضي: "فنظرية الأدب هي مجموعة من الآراء والأفكار القوية والمتسقة والعميقة والمترابطة، والمستندة إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محددة، والتي تهتم بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته. وهي تدرس الظاهرة الأدبية بعامة من هذه الزوايا في سبيل استنباط وتأصيل مفاهيم عامة تبين حقيقة الأدب وآثاره". محاضرات في نظرية الأدب ص 10

وتتمثل وظيفة نظرية الأدب في: "البحث عن نشأته وطبيعته ووظيفته: فالبحث عن طبيعته يعني الاهتمام بمقومات الأدب كحقيقة عامة، في أي زمان ومكان أو لغة كتب بها، أي بيان جوهره وخصائصه وسماته العامة. والبحث في نشأته يعني بيان العلاقة بين الأديب والعمل الأدبي. أما البحث في وظيفته فيعني العلاقة بجمهور القراء وأثر الأدب في المتلقين، فالأديب والعمل الأدبي والقراء هم أركان النظرية". ص 10

4-حنا عبود: "عندما حددنا النظرية الأدبية (مادة، منتج، مستهلك..) نكون قد حددنا موقعها أيضا. وبهذا تختلف عن التاريخ الأدبي والنقد الأدبي والدراسة الأدبية. ولكنها في الوقت نفسه لا تقطع الصلة لا مع التاريخ ولا مع النقد ولا مع الدراسة. إنها تستفيد من كل ذلك بيد أنها لا تنساق وراء أي فرع من هذه الفروع. إنها نوع من "التجريد"، ففي الوقت الذي يقوم التاريخ الأدبي بعرض المنتجين ونشاطاتهم، تكتفي النظرية الأدبية بعرض المنتَج "المثالي" أي المنتَج المجرد. وفي حين يعالج النقد الأدبي نصا معينا، تعالج النظرية الأدبية النص المجرد. وكذلك فإن المستهلك هو القارئ المثالي وليس قارئا بعينه..وهكذا فإن النظرية الأدبية في هذا المعنى لا تختلف عن أي نظرية في العلم الاقتصادي أو السياسي سوى أنها تختص بالبحث عن القوانين الأكثر ثباتا ورسوخا. إن مبادئ النظرية الأدبية تكون مجردة وشاملة. وعلى هذا فإن كلمة "نظرية" تعني نظريات، فليس من الضروري حتى لهذه المبادئ الشمولية أن تكون واحدة لدى جميع المنظرين، فهذا يهمل عنصرا أو يسقط آخر أو لا يعترف بثالث. فالقارئ المستهلك مثلا قد يكون بارزا في هذه النظرية وقد يكون غائبا في تلك". النظرية الأدبية والنقد الأسطوري ص 26